الفصل الخامس

الثورات فى عهد الحجاج

- ثورة عبد الله بن الجارود
- ثورة الزنج
- ثورة مُطَرِّف بن المغيرة
- ثورة ابن الأشعث
- دير الجماجم وما تلاها
- هلاك عبد الرحمن ابن الأشعث
- الحجاج وتعامله مع الأسرى

ثورة عبد الله بن الجارود

بعــد أن خطب الحجــاج خطبته فى أهل البصــرة رغبة منه فى إثبات حضوره وحشــد المزيد من الجنــود للإنضمام إلى جيش المهلب بن أبى صفرة تحرك إلى رستقباذ فوقف خطيباً فى الناس مرة أخرى وقال :

(يا أَهل المصريــن[1] هذا المكان والله مكانكم .. جمعة بعد جمعة .. وشــهراً بعد شهر .. وسنة بعد ســنة .. حتى يُهلك اللَّه عز وجل هؤلاء الخوارج المُطلين عليكم)

فقال له الناس :

(ولم تحبســنا أصلح اللَّه الأمير بهذا المكان .. ســر بنا إلى هؤلاء الكلاب فما هم إذا اجتمع أَهل المصرين عليهم بشيء)

* * *

فى ذلك اليوم دخل عليه واحد من أشــراف البصرة يدعى الهذيل بن عمران البُرجُمى وكان من أصدقاء الأمير الســابق بشــر بن مروان وكان ذا منزلــة وجاه فلما دخل على الحجاج كان ثوبه طويلاً فجعل يجره فقال له الحجاج :

(١) يقصد الكوفة والبصرة

(يا هذيل .. ارفع ثوبك)

و كان أهــل العراق يتســمون بالخيلاء ويحبــون أن تبدو عليهم مظاهر الثراء خاصة أشرافهم فأغضبته مقولة الحجاج وقال :

(إن مثلى أيها الأمير لا يقال له هذا القول)

فقال الحجاج :

(بلى والله .. وتضرب عنقه)

فخرج الهذيل غاضباً وهو يتمتم :

(قاتلــه اللَّه جذيــاً[1] ما أتيهه فى نفســه[2] وفــى الهذيل يقول الشاعر: يأيها السائل فى الرفاق .. إن الهذيل سيد العراق)

* * *

بعد أيام خطب الحجاج فى الناس فقال :

(إن الزيــادة التى زادكم إياها ابن الزبــير إنما هى زيادة ملحد منافق فاسق ولسنا نجيزها)

---

(١) أى قليل الشأن

(٢) المراد أنه مغرور

و كان مصعب بن الزبير قد زاد أعطيات الجند عشرة آلاف درهم فـأراد الحجاج أن يمنعها إياهم فغضب لذلك رجل أخر من أشـراف البصرة هو عبد الله بن الجارود وقال :

(أيها الأمير .. ليسـت بزيادة ابن الزبير .. إنما هى زيادة أَمير المؤمنـين عبد الملـك إذ أنفذها وأجازها وجرت لنا على يد بشـر بن مروان)

فقال له الحجاج :

(ما أنت والكلام .. لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه)

فقال :

(ولم ؟ والله إنى لك لناصح .. وإن قولى هذا لقول من ورائى)

* * *

مر شـهر كامل لا يذكر الحجاج شـيئاً من أمر العطايا ونقصانها ثـم جاء على ذكرها فرد عليه ابن الجارود نفس رده الأول فقام إليه واحد من المؤيدين للحجاج وهو مُصْقَلة بن كرب العبدى فقال :

(إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها .. وقد سمعنا ما قال الأمير .. فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكرهنا)

فقال له ابن الجارود غاضباً :

(يــا ابن الجرمقانية .. وما أنت وما ها هنا ؟ .. ومتى كان مثلك يتكلم وينطق فى مثل هذا ؟)

بعد ســاعات ســيجتمع عبد الله بن الجــارود والهذيل بن عمران البرجمى وعبد الله بن حكيم المجاشــعى ليتناقشــوا فــى هذا الأمر فيميل الجميع إلى رأى ابن الجارود ويقولون :

(نحن معك ويدك وأعوانك .. إن هذا الرجل غير كاف كى ينقصنا هــذه الزيادة .. فهلم نبايعك علــى إخراجه من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولى علينا غيره .. فإن أبى خلعناه فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج)

بايع الناس ابن الجارود ســراً وبدأوا فى التخطيط لقتال الحجاج والخروج عليه وانضم له الكثير من الناس حتى قويت شــوكته وبلغ الحجاج ما اجتمعوا عليه فزرع العيون فى الطرقات ونشــر الحرس ووصل الإســتنفار إلى أعلى مستوياته .. أظهر بن الجارود ثورته فى شهر ربيع الآخر عام ستة وسبعين هجرياً ودعا الناس للإنضمام إليه فانضموا إليه بالطبع ولم يبق مع الحجاج إلا جنده المقربين وخاصته بالإضافة لأهل بيته ..

فأرسل الحجاج رسولاً إلى ابن الجارود يدعوه للمفاوضات وحَمَّل الرسول رسالة لا يخبره بها إلا فى حالة رفضه للمفاوضات فلما وصل الرسول إلى ابن الجارود قال :

(أجب الأمير)

فرفض وقال له فى تحدى :

(ومن الأمير ؟ ولا نعمة عين[1] لابن أَبى رغال[2] .. ولكن ليخرج عنا مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه)

مع رفضه لمبدأ التفاوض قال رسول الحجاج :

أما إذ لم تجبه فأنه أمرنى أن أقول لك :

(أتطيب نفساً بقتلك وقتل أَهل بيتك وعشيرتك .. والذى نفس الحجاج بيده .. لئن لم تأتنى لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة كأمة قد بادت وحديثاً للغابرين)

فقال ابن الجارود للرسول :

(١) أى لا كرامة

(٢) أبى رغال هو الدليل العربى لجيش أبرهة الذى قاده إلى الكعبة ليهدمها فصارت كلمة أبى رغال وصفاً لكل خائن فكل خائن هو بالتبعية أبى رغال

(والله يا ابن الخبيثة لولا أنك رسول لضربت عنقك)

عندهـا صارت المواجهـة حتمية .. تجمع النـاس لابن الجارود فجهزهم بالسـلاح وخرجوا فى إتجاه دار الحجاج فنهبوها وأخذوا متاعه ودوابه منها حتى انهم اختطفوا زوجتى الحجاج واعتبروهما أوراق ضغـط عليـه ليخرج من العراق .. هـم لم يرغبوا بقتاله وإنما أرادوا إرغامه على ترك الإمارة والرجوع إلى دمشق ..

إن لم يتصرف الحجاج بسرعه فلعله أخر أيامه بالإمارة ..

أو ربما يكون أخر أيامه فى الدنيا ..

* * *

فـى تلك الليلـة خدمت الظروف الحجاج نسـبياً فبعـد أن كان شـبه وحيد فى مواجهة ابن الجـارود ورجاله إذ جاءه بعض الناس الذين خشـوا نجاح الحجـاج فى القضاء على ابـن الجارود وحينها سينظر فيمن وقف معه وفيمن تخاذل فعرضوا عليه المساعدة فاستغل الحجاج ذلك وأخرج أتباعه الجدد ليسـيروا بـين الناس ليخذلوهم ويتوعدوهـم إن لم يعودوا للطاعة فسـيفعل بهـم الحجاج ويفعل .. بالفعـل أتت تلك الخطة ثمارها وبدأ كثـير من الناس فى الإنضمام للحجاج وتنبـه لهذا رجل من مؤيدى ابن الجـارود اسمه الغضبان القبعثرى الشيبانى فقال له :

(تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك .. أما ترى من قد أتاه منكم ؟ .. ولئن أصبح ليكثرن ناصره وليضعفن مدتكم)

فقال له ابن الجارود :

(قد قرب المساء .. ولكنا نعاجله بالغداة)

* * *

فى تلك الأثنـــاء كان يجتمع بالحجاج رجلان هما عثمان بن قطن الحارثى وزياد بن عمرو العتكى فقال لهما :

(ما تريان ؟)

فقال زياد :

(أرى أن آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأَمير المؤمنين .. فقــد أرفــض جمهور الناس عنك ولا أرى لــك أن تقاتل بمن معك ولا أحب لك أن تضيع نفسك وتهلكها)

فاستدار الحجاج لعثمان بن قطن ليسمع رأيه فقال عثمان :

(لكنــى لا أرى ذلــك .. إن أمــير المؤمنين قد أشــركك فى أمره وخلطك بنفسه واستنصحك وسلطك وملكك فسرت إلى ابن الزبير وهو أعظم الناس خطراً فقتلته .. فولاك اللّه عز وجل شــرف ذلك وســناه

وذخـــره وأجره .. وولاك أَمير المؤمنين الحجـــاز ثم رفعك إلى ولاية العراقين[1] .. أفالآن حـــين جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى وهابتـــك العرب تخرج على قعود تدأدى[2] يوجف بك إلى الشـــام .. والله لئن فعلتها لا نلت من عبد الملك مثل الذى أنت فيه من السلطان أبداً .. وليتضعن شـــأنك ولتســـقطن عنده ولتهونن علـــى كل عدو .. ولكنى أرى أن نمشـــى بسيوفنا معك فنضارب هؤلاء القوم حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً)

فقال الحجاج :

(قرعتنى بما فى قلبى قرعاً .. الرأى ما رأيت)

* * *

فـــى الصبـــاح وجد الحجاج نفســـه وقد أحيط بســـتة آلاف مقاتل فاطمئـــن بهم .. أما عبد الله الجارود لما رأى الأعداد التى مع الحجاج قال لعبيد الله بن زياد بن ظبيان :

(ما الرأى ؟)

قال :

(١) يقصد عراق العرب وعراق العجم

(٢) دأدأ بمعنى جرى بأسرع ما يمكنه والمراد هنا تهرب إلى الشام

(تركـت الرأى أمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك .. وقد ذهب الرأى وبقى الصبر)

و فى المقابل أراد الحجاج أن يدب الحماس فى قلوب جنوده فقال لهم :

(لا يهولنكـم ما ترون من كثرة عدد عدوكم فإنه ليس بكم بحمد الله قلـة ولا ذلة .. فشـدوا عليهم يتطايروا تطايـر الأجم المنفر[1] .. إنهم أخور من اليراع[2] .. وإن صدقتموهم الضرب سألوكم الأمان)

ثم نظم جيشـه فجعل على ميمنته قتيبة بن مسلم وعلى ميسرته سـعيد بن أسـلم ووضع نفسـه فى القلب أما ابن الجارود فكان على ميمنته الهذيل بن عمران وعلى ميسـرته عبيد الله بن زياد بن ظبيان وبدأ الهجوم فكانت الغلبة لابن الجارود وجيشـه الذين اسـتطاعوا دحـر جيش الحجاج إلى الوراء وبدا أنهم ف طريقهم لتحقيق النصر إلا أن سهماً انطلق من صفوف جيش الحجاج أصاب ابن الجارود فى مقتل فسـقط على الأرض ميتاً فلما قُتل تشتت أصحابه فأمر الحجاج مناديه أن ينادى فى الناس أن كل الناس آمنين إلا الهذيل بن عمران وعبـد الله بن حكيم وبالفعل تم أسـرهما واقتيـدا إلى الحجاج فأمر بضـرب أعناقهما هـم وبعض أكابر من قاموا بالثـورة ضده ثم بعث

(١) الأجم هو الكبش الذى بلا قرون

(٢) اليراع نوع من الحشرات

رؤوسهم إلى المهلب بن أبى صفرة ليرفع من روحهم المعنوية ويبأس الخوارج مما سيرونه من مقتل أعداء الحجاج ..

* * *

بعد الإنتهاء من أمر الثورة حان وقت الإنتقام حيث عاد إلى البصرة فقتل وعذب كل من ثبتت عليه تهمة الإنضمام لثورة ابن الجارود وقد نال الصحابى أنس بن مالك بعضاً من سوء المعاملة وقد تم بيانه سابقاً وبعد أن انتهى كتب إلى عبد الملك بن مروان فقال :

(أما بعد .. فالحمد لله الذى حفظ أمير المؤمنين .. إنى لما نزلت منزلى من رستقباذ وثب على أهل العراق فخالفونى ونابذونى ودخلوا فسطاطى وانتهبوا أموالى وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا .. ففارقنى البعيد وأسلمنى القريب ويئس منى الشفيق فشددت عليهم بسيفى ولقيتهم بشيعتى وقلت الموت قبل البراح .. فوالله ما رمت العَرْصَة[1] حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً فضربت بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل الله عز وجل طاغية القوم عدو الله ابن الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم وضرب الله عز وجل وجوههم فأخذوا شرقاً وغرباً[2] ثم إنى آمنت الناس غائبهم

(١) العرصة هى ساحة الدار وأيضاً كل بقعة ليس فيها بناء ولكنها هنا إسم مدينة

(٢) أى هربوا

وشـاهدهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم ولله الحمد كثيراً والسلام)

فكتب إليه عبد الملك :

(أمـا بعد .. فقد بلغنى كتابـك .. وأنت الناصح النجيب الأمين بالغيب القليل العيب .. فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم والسلام)

كان هذا ترخيصاً من عبد الملك للحجاج باستخدام العنف يصل إلى حد الأمر بقتل من خالفه .. الحجاج بالأساس لم يكن ينتظر تصريحاً مـن عبد الملك إلا أنه بهذه الرسـالة إمتلـك كل الصلاحيات المتاحة للإنتقام ممن يفكر فى تكرار هذا الأمر مجدداً ..

سـيجد الحجاج الكثير من الفرص لاستخدام ترخيص عبد الملك بن مروان ..

بالتأكيد سيجد ..

* * *

انظر للاستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٢٨٢ : ٢٩٢

ثورة الزنـج

الزنج هم العبيد المستقدمين من إفريقيا .. إذا شئنا الدقة كان يتم إصطيادهـم .. بعدها كان يتم بيعهـم كعبيد فى بلاد العراق فيقوموا بالأعمال الشـاقة والمتدنية والتـى لا يقبل بها اهل العراق مثل حفر الأنهـار ومد الطرق والعمل فى مناجم الملح .. لم يقف الأمر عند هذا .. كان هـؤلاء العبيد يعملـون فى ظروف غاية فى القسـوة فلا يتم توفـير الحد الأدنـى من ظروف العمل الملائمة لهم .. سـاعات عمل طويلة .. مهام شـاقة .. أماكن نوم فى غاية الرداءة قيل أنها حظائر الحيوانات .. والأسـوأ معاملة سـيئة من سـادتهم وحتى من عامة الناس فكانت النظرة لهم دونية لا تتفق بأى شكل مع تعاليم الإسلام .. وضع مأساوى مثل هذا كان طبيعياً أن يفرز كراهية مدفونة تتحين اللحظة لتخرج إلى النور ..

* * *

الزنـج لهم ثورتـان معروفتان تاريخياً ثانيهما وأشـهرهما هى الثورة التى قامت فى عهد الدولة العباسـية على يد شـخص فارسى إسمه على بن محمد واسـتمرت تلك الثورة لمدة خمسـة عشـر عاماً بداية من عام مائتان وخمسـة وخمسـون هجرياً حتـى العام مائتان وسبعون هجرياً .. الثورة الأولى للزنج كانت فى عهد الدولة الاموية

فـي العراق وقت ولاية الحجاج بن يوسـف وكانـت فترتها قصيرة نسبياً ..

* * *

بدأ تململـ الزنج فى نهايـة عهد مصعب بن الزبـير فتجمعوا محاولين إظهار إعتراضهم على أوضاعهم السيئة لكنهم لم يستطيعوا بسبب قلة أعدادهم وأقصى ما كانوا يستطيعون فعله هو سرقة الثمار من الحقول وإفسـاد ما استطاعوا من ممتلكات أسيادهم .. مع الوقت زادت اعدادهم وازداد أذاهم فبدأت الناس تشـتكى من افعالهم وكان على البصرة خالد بن أسيد فجمع لهم جيشاً كثيفاً فتفرقوا أمامه ولم يسـتطيعوا المواجهة ولكن بعد ان أسـر منهم عدداً لا بأس به فقتلوا وصلبوا وبهذا زاد حقـد الناجين منهم على أهل البصرة .. لم يتعلم أهل البصرة مما حدث واسـتمرت المعاملة لهم على ما كانت عليه بل أسوأ إنتقاماً منهم على ما فعلوه وظلت أوضاعهم من سيء لأسوأ حتى حدثـت ثورة ابن الجارود فوجدها الزنـج فرصة للإنتفاض ضد أهل البصرة وحكم الحجاج الغير عادل من وجهة نظرهم ..

* * *

إجتمع الزنج على رجل منهم اسمه رياح وشـهرته شـيرازنجى أى أسـد الزنج وبدأوا فى تجهيز جيشـهم الصغـير وانضم لهم جُلّ

العبيد فى الفرات والبصرة وأيضاً بعض المؤمنين بهم من ذوى البشرة البيضاء وبدأوا فى الإستيلاء على الأراضى والممتلكات ووصل أمرهم إلى أمير الفرات وقتها وكان اسمه كراز بن مالك السلمى لكنه لم يقدر عليهم فأراد شيرازنجى استفزازه فأرسل إليه رسالة يقول فيها :

(من أمير المؤمنين رياح شيرازنجى – وكان سمى نفسه أميراً للمؤمنين – إلى كراز السلمى .. أما بعد .. فقد حضرت ولادة سَكَة أم المؤمنين[1] فابعث إليها امرأتك لتُقَبِلها[2] والسلام)

خطاب مثل هذا كان كفيلاً باستفزاز نخوة كراز السلمى إلا أنه وللعجب لم يجمع جيشاً لقتاله وإنما هرب منه ورجع إلى الحجاج فى الكوفة يخبره بما جرى وعلى الفور أمر الحجاج بتكوين جيش على عجل لقتال الزنج قبل أن يستفحل أمرهم ووضع عليه حفص بن زياد العتكى إبن صاحب شرطة البصرة زياد بن عمرو العتكى ولكن لأن الجيش لم يكن مجهزاً بشكل مثالى فقد هُزم أمام الزنج وقتل حفص بن زياد وارتفعت أسهم الزنج أكثر وانضم لهم فئات أخرى رأت فيهم المخلص من حكم الحجاج ومن وراءه بنى أمية ..

* * *

(١) يعنى زوجته وكان اسمها سكة

(٢) لتوليدها

هزيمة أجبرت الحجاج على الذهاب إلى البصرة ليستحث أهلها على القتال فوصل وقد كسا وجهه الغضب وخطب فيهم قائلاً :

(يا أهل البصرة .. إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم .. وايم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفونى أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل باستخراجكم وفسادكم)

فجهز الحجاج جيشه وأعطاهم عطاياهم ووضع عليهم كراز السلمى ليمحو العار الذى طاله بعد هروبه أول مرة من المواجهة وبالفعل صبر كراز وجيشه فى مواجهة الزنج فكانت معركة حامية الوطيس استطاع فيها كراز صدهم حتى أجبرهم علي التراجع إلى صحارى دورق[1] فتبعوهم إلى هناك وتواجهوا مجدداً فقتل قائدهم رياح شيرازنجى وقتل أغلب جيش الزنج وتفرق الباقين منهم هرباً وبهذا انتهت ثورة الزنج الأولى .. ثورة كانت قصيرة ولكنها كانت مؤشر لثورات وانتفاضات أخرى فى الطريق ..

الحجاج ينتظره الكثير ..

* * *

أنظر للإستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى – الجزء السابع – ص ٢٩٩ : ٣٠٢

(١) دورق مدينة فى خوزستان وصحرائها تقع فى منطقة الأهواز حالياً

ثورة مُطَرَّف بن المغيرة

مطـرف بن المغيرة بن شـعبة أحد أبنـاء الصحابـى المغيرة بن شـعبة .. عم المغيرة بن شعبة هو عروة بن مسعود جد الحجاج لأمه وعظيم القريتـين كما ذكرنا وبهذا فهناك صلـة قرابة بين الحجاج وبين المغيرة بن شـعبه وأبناءه .. ولهذه القرابة وأيضاً لشرف أباهم وعزه وسـابقته فقد جعل الحجاج أبناء المغيرة بن شـعبة أمراء على الأمصار فاسـتعمل عروة على الكوفة ومطرف على المدائن .. وحمزة علـى همذان .. وفى المقابل هم كانوا علـى أفضل ما يكون من ناحية إدارة أقاليمهم ومن ناحية ولائهم لعبد الملك بن مروان والحجاج من بعـده وليس أدل على هذا إلا مافعله مطرف حين ولاه الحجاج على المدائن إذ دخل المسجد واعتلى المنبر ثم قال :

(أيهـا الناس .. إن الأمير الحجاج أصلحـه الله قد ولانى عليكم وأمرنى بالحكم بالحق والعدل فى السيرة .. إن عملت بما أمرنى به فأنا أسـعد الناس وإن لم أفعل فنفسـى أوبقت وحظ نفسى ضيعت .. ألا إنى جالس لكم العصرين فارفعوا إلى حوائجكم وأشـيروا على بما يصلحكم ويصلح بلادكم فإنى لن آلوكم خيراً ما استطعت)

* * *

إلى هنا يبدو كل شـيء على ما يرام .. اسـتمر الوضع هكذا إلى أن شـاء الله وظهر شـبيب بن يزيد الخارجى وبدأ فى النيل من جيوش الحجاج كما سـبق وذكرنا حتى وضع شـبيب عينه على المدائن التى فيها مطرف بن المغيرة فاستمد مطرف الحجاج بجند لمواجهة شبيب وأراد أن يؤخـر اللقاء قدر المسـتطاع حتى يبعث الحجاج بالمزيد من الجنود فبعث إلى شـبيب يطلب منه إرسال بعض أصحابه لمناظرتهم فبعث إليه بعضاً منهم فسألهم مطرف عما يدعون إليه فقالوا :

(ندعـوا إلى كتاب الله وسـنة رسـوله ﷺ .. وإن الذى نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية)

فقال لهم مطرف وقد أعجب بمنطقهم وآمن بحجتهم :

(مـا دعـوتم إلا إلى حق .. وما نقمتم إلا جـوراً ظاهراً .. أنا لكم متابع فتابعونى على ما أدعوكم إليه ليجتمع أمرى وأمركم)

فقالوا :

(اذكره .. فإن يكن حقاً نجبك إليه)

قال :

(أدعوكـم إلى أن نقاتل هـؤلاء الظلمة على إحداثهم وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون

من يرتضون على مثل هذه الحال التى تركهم عليها عمر بن الخطاب .. فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا وكثر تبعكم وأعوانكم)

فقالوا :

(هذا ما لا نجيبك إليه)

و تكـررت بينهـم الزيارات مدة أربعة أيام وفـى كل يوم يصلوا إلى نقطة الخلاف الرئيسـية وهـى أن المغيرة يريد أن تكون الخلافة شورى ولكنها تظل فى قريش أما الخوارج فرأوا أن تكون شورى ولا ضـير ولكن تكون بين الناس كافة .. الطرفان اتفقا على عدم صلاحية بنى أمية وأمراءهم للحكم ولكن اختلفوا فى الهدف النهائى ..

* * *

بعد أن فشـلت المفاوضات بينهم جمع مطرف أصحابه الذين يثق بهم وأخبرهم بالخبر وكيف أن الحجاج طغى وأن عبد الملك بغى وأن الامـر لا يعدوا كونه ملكاً جبرياً وأن الأمر لابد وأن يعود للشـورى مرة أخرى فقالوا له :

(اخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد)

و قال له يزيد بن أبى زياد :

(والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة .. وليزادن على كل كلمة عشر أمثالها .. ولو كنت فى السحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلك .. فالنجاء النجاء)

فاقتنع مطرف برأيه وخرج وأصحابه وبدأوا فى الدعاية لأنفسهم ولما عزموا القيام به وبالطبع وصلت الاخبار إلى الحجاج فمروا بالدسكرة وحلوان وهمذان التى عليها شقيقه حمزة فطلب منه المدد فأمده سراً ثم سار ناحية ماه دينار حتى وصل إلى قم وقاشان فى بلاد فارس وبالطبع فإن كل تلك التحركات كانت مرصودة فأمر الحجاج بعزل حمزة بن المغيرة شقيق مطرف وإلقاءه فى السجن فأمن بذلك ألا يمده بمزيد من السلاح ثم استعد بعدها للقضاء عليه ..

* * *

حتى يتأكد الحجاج من القضاء على مطرف بن المغيرة فإنه كتب إلى البراء بن قبيصة عامله على أصبهان وأيضاً كتب إلى عدى بن زياد عامله على الرى وأمرهما بالإجتماع علي حرب مطرف بن المغيرة فسارا إليه وطوقوه ثم اقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه مطرف وأصحابه وقتل هو وكثير ممن بايعوه على ثورته .. قتله رجل يدعى عمير بن هبيرة الفزارى وحمل رأسه إلى الحجاج فأكرمه الحجاج أشد الكرم وبهذا انتهت ثورة مطرف بن المغيرة وكانت قصيرة مثل سابقتها ولم يتح لها فرص النجاح ويجوز ذلك بسبب عشوائيتها

وعــدم قدرة قادتها على توصيل أهدافهــا إلى عموم الناس على الرغم من وجاهة ما كانت تعرضه ..

قد يظن البعض أن أشــد ما واجه الحجــاج من الثورات كان ثورة الخوارج ..

حسناً .. الخوارج كانوا خطرين بالفعل .. ولكن هناك ثورة كانت أكثر خطراً بكثير مما سبق ..

ثورة ابن الأشعث ..

* * *

ثورة ابن الأشعث

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى .. من أشراف الكوفة .. والده هو محمد بن الأشعث قيل أنه هو من قتل مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين رضى الله عنه إلى أهل الكوفة لأخذ البيعة منهم وكان من أبرز قادة مصعب بن الزبير فى حربه ضد المختار بن عبيد الله الثقفى ..

* * *

عبد الرحمن ولد فى بيت واحد من أشراف الكوفة وكنده .. شاب .. يافع .. وصفته كتب التاريخ بأنه أقرب للغرور والتيه بالنفس والإعتداد بالذات .. لما بحث الحجاج عن رجل يوليه شرطة العراق أشاروا عليه بعبد الرحمن بن الأشعث فوافق فلما أخبروا عبد الرحمن بذلك قال :

(ومثلى يتقلد سيفاً ويمشى بين يدى ابن أبى رغال ؟![1] .. والله ما رأيت أحداً قط على منبر يخطب إلا وظننت فى نفسى أنى أحق بذلك منه)[2]

(١) يعنى الحجاج

(٢) الفتوح للكوفى – المجلد الرابع – ص ٨٠

و كان يقول عن علاقته بالحجاج :

(وأنـا كما يقـول ابن أبى رغـال .. إن لم أحـاول أن أزيله عن سلطانه فأجهد الجهد إذ طال بى وبه البقاء)

كانت النية موجوده عن عبد الرحمن بن الأشـعث للإستيلاء على السـلطة وكان يرى نفسـه أحق بها وبالطبـع لم يكن يحب الحجاج حتـى ولو عمل تحت إمرته وقاد بعض جيوشـه التى سـيرها لفتح البلـدان أو لتأديب الخارجـين عليه .. وأعتقد أن ذلـك التوتر كان متبادلاً فقد كان الحجاج يقول لمن بجواره كلما رأى ابن الأشعث :

(انظر إلى مشيته .. والله لهممت أن أضرب عنقه)[1]

و كان يقول أيضاً :

(هو أهوج .. أحمق .. حسـود.. وأبوه الذى سـلب أمير المؤمنين عثمـان ثيابه وقاتلـه .. ودل عبيد الله بن زياد على مسـلم بن عقيل حتى قتله .. وجده الأشعث ارتد عن الإسلام وما رأيته قط إلا هممت بقتله)[2]

* * *

(١) مصارع الأعيان لكامل كيلانى – ص ٩١

(٢) البداية والنهاية لابن كثير– الجزء التاسع – ص ٣٥

القصــة بدأت عندما ولى الحجاج على سجســتان عبيد الله بن أبى بكــرة وكان على بلاد الــترك حاكماً يدعى رُتبيــل وقد منع الخراج عامــاً فأراد الحجاج أن يؤدبه فأمر عبيد الله أن يخرج بجيش كثيف ولا يرجــع حتى يســتولى علــى أرض رُتبيل ويهــدم حصونه ويقيد رجاله ففعل عبيد الله وظل يتقدم حتى استطاع رُتبيل أن يحاصره فى بعض الشــعاب وظن المســلمين أنه الهلاك الأكيد فاضطر عبيد الله أن يصالح رُتبيل على دفع سبعمائة ألف درهم ليستطيع إخراج المسلمين بأمان وعلم الحجاج بما حدث فبعث إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى إرســال جيش أكبر لتأديب رُتبيل وجباية الخراج منه فوافق .. أربعون ألف مقاتل .. أعلى التجهيزات الممكنة .. عطاء لم يســاويه عطاء أخر خاصة لأصحاب الخبرة القتالية .. أطلق الحجاج على ذلك الجيش جيش الطواويس بسبب ما أنفق عليه ..

سيضع الحجاج على ذلك الجيش عبد الرحمن بن الأشعث ..

* * *

العجيــب فى الأمر أن الحجــاج رغم علمه بغــرور وخيلاء عبد الرحمن بن الأشعث وعلى الرغم من كراهيتهما المتبادلة إلا أنه أصر على إرســاله على رأس ذلــك الجيش .. الامر هنــا يتجاوز مرحلة الظنون أو حتى الكراهيــة الظاهرة .. الحجاج وصلته تحذيرات من تولية الجيش لابن الأشــعث ولم تأتى التحذيرات من شخص عادى

وإنما وصلته من عمه إسماعيل بن الأشعث حيث قال له :

(لا تبعثه فإنى أخاف خلافه .. والله ما أجاز جسر الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطاناً)

فكان الحجاج يقول :

(ليس هناك .. هو لى أهيب وفىّ أرغب من أن يخالف أمرى أو يخرج من طاعتى)

على أى حال خرج عبد الرحمن على رأس الجيش وبالفعل استطاع أن يستولى على أراض كثيرة من بلاد رُتبيل ونال منه ولكن فصل الشتاء عاجلهم فقرر عبد الرحمن أن يقيم حتى ينتهى الشتاء ويتقوى جنده لما هو آت فأرسل إلى الحجاج يخبره بذلك فرد عليه قائلاً :

(إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً .. وإنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخى النفس بمن أصيب من المسلمين .. فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم)

فلما استبطأ رده بعث إليه كتاباً أخر قال فيه :

(أمـا بعد .. فَمُر من قبلك من المسـلمين فليحرثوا وليقيموا بها فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم)

فلما استبطأه مرة أخرى أرسل إليه كتاباً ثالثاً يهدده فيه بالعزل فقال :

(إن مضيت لما أمرتك وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس)

عندها غضب عبد الرحمن وقال :

(يكتب إلى بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندى ولا مـن بعض خدمى لخوره وضعف قوتـه ؟ .. أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة[1])

بعدها جمع أصحابه وثقته من الناس وقال لهم :

(إن الحجاج قد ألح عليكم فى الإيغال فى بلاد العدو وهى البلاد التى قد هلك فيها إخوانكم بالأمس .. وقد أقبل عليكم فصل الشـتاء والـبرد فانظروا فى أمركم .. أما أنا فلسـت مطيعـه ولا أنقض رأياً رأيته بالأمس)

(١) يقصد جبنه عن مواجهة غزالة زوجة شبيب الخارجى التى دعته للمبارزة فرفض أن يبارزها وتحصن بقصر الإمارة

فغضب الناس ورفضوا أمر الحجاج وقالوا :

(لا .. بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع)

ثم تكلم أولهم وهو عامر بن وائلة الكنانى فقال :

(إن مثـل الحجاج فى هـذا الرأى ومثلنا كما قـال الأول لأخيه أحمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك .. أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة فى سلطانه وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء)

ثم أكمل :

(اخلعـوا عـدو الله الحجـاج وبايعوا لأميركم عبـد الرحمن بن الأشعث فإنى أشهدكم أنى أول خالع للحجاج)

فقال الناس من كل جانب :

(خلعنا عدو الله)

عبد الملك بن مروان ليس طرفاً إلى الآن ..

المواجهة مع الحجاج فقط ..

* * *

بدأ بن الأشـعث فى حشد الناس حوله فأرسل إلى المهلب بن أبى صفرة يدعوه للبيعة فرفض وأرسل إليه يقول :

(إنك يا ابن الأشـعث قد وضعت رجلـك فى ركاب طويل .. ابق على أمة محمد ﷺ .. انظر إلى نفسك فلا تهلكها ودماء المسلمين فلا تسـفكها والجماعة فلا تفرقها والبيعة فـلا تنكثها فإن قلت أخاف الناس على نفسـى فالله أحق أن تخافه من الناس فلا تعرضها لله فى سفك الدماء أو استحلال محرم والسلام عليك)

ثم كتب المهلب إلى الحجاج فقال :

(أما بعد .. فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السـيل ليس يردهم شـيء حتى ينتهى إلى قراره .. وإن لأهل العراق شـرة[1] فى أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم[2] ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم)

فلما قرأ الحجاج كتابه قال :

(ما إلىّ نظر وإنما نظر لابن عمه)

وكان المهلـب يقصد أن جيش ابن الأشـعث صار لـه فترة طويلة

(١) حدة ونشاط

(٢) المراد شوق

بعيداً عــن العراق وبالتالى فالجنود اشــتاقت إلى أبناءهم ونســاءهم وإن منعتهم من رؤيتهم كانوا أشــد عليك فى القتال وأكثر رغبة فى الإنتصار وقد أراد بهذا نصح الحجاج فلم يستجب لنصحه ..

* * *

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث استقطبت الكثير وقيل أن جيش ابن الأشعث كان أكثر الجيوش التى قابلت الحجاج عدداً .. روى أن ذلك الجيش كان ضمن صفوفه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومئة وعشــرون ألــف راجل فى ذروة مراحــل القتال .. فى المقابل فإن الحجاج جمع جل ما يستطيعه من أهل العراق وبعث إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه المدد فكانت لا تنقطع عنه الفرق الداعمة إليه حتى قيل أنه كلما تجهز خمسون فارس أو أكثر قام عبد الملك بتسييرهم إلى الحجاج ..

جهز الحجاج جيشه وخرج به من البصرة فلقيه طليعة جيش ابن الأشــعث فدار بينهم قتال دموى قتل فيه أكثر من ألف وخمســمائة من فرسان الحجاج وسلبوهم متاعهم وغنموا أسلحتهم فكانت هزيمة منكــرة للحجاج فقــرر التراجع إلى البصرة ســريعاً فتبعه جنود بن الأشــعث وقتلوا من لقيوه من جيشــه وعندها أيقــن الحجاج جدوى نصيحة المهلب فقال :

(لله در المهلب .. أى صاحب حرب هذا .. قد أشار علينا بالرأى ولكنّا لم نقبل)

وفــر جيش الحجاج مــن البصرة عندما اقــترب منها جيش ابن الأشــعث فجاء عبد الرحمن واعتلى المنبر وخطــب فى الناس مثيراً حماسهم ومذكرهم بمساوئ حكم الحجاج ثم أنهى خطبته بأن قال :

(ليس الحجاج بشيء .. ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله)

فوافقــه كل من فــى البصرة وبايعــه جميع فقهاءها وشــيوخها وقراءها ..

الآن عبد الملك بن مروان أصبح طرفاً ..

ملك بنى أمية على المحك الآن ..

* * *

ثورة ابن الأشعث كانت أخطر ما واجه الحجاج فى العراق وذلك لعدة أسباب منها :

١ – الجيش الذى خرج به عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رُتبيل كان قريبــاً من أربعين ألف مقاتــل وهو عدد كبير بما يكفى ليمثل تهديداً على حكم الحجاج للعراق على الأقل ..

٢ – بعد إعلان ابن الأشعث للتمرد انضم إليه عدد من ولايات المشرق وذلك بســبب ظلــم الحجاج وتغطرســه فازداد العــدد المنضم

للجيش حتى أن بعض الروايات بالغت وقالت أن الجيش كان يضم مئتى ألف مقاتل مئة من الفرسان والجند ومئة من الموالى والعبيد ..

٣ – لم تكن الثورة فئوية وإنما كانت ثورة ضد الظلم والتعسف فانضم لها كافة أطياف الناس وقتها وكان على رأسهم أبناء بعض الصحابة والعلماء والفقهاء ومشاهير المجتمع فأسماء مثل سعيد بن جبير والشُعبى وابن أبى ليلى كانت لها ثقلاً بلا شك .. أسماء مثل محمد بن سعد بن أبى وقاص ومسلم بن يسار ومالك بن دينار وأبو الجوزاء كان لابد وأن يجتمع الناس عليها .. حتى الحسن البصرى الذى رفض الخروج وأراد الإعتزال لم يتركه ابن الأشعث وأخرجه ضمن صفوف الجيش مرغماً ..

باختصار كان التكاتف شديد والإجماع عظيم وإن لم يجد الحجاج ومن خلفه عبد الملك بن مروان طريقة لإنهاء هذه الثورة لكان حكمهم وملكهم فى مرمى الخطر ..

* * *

فى اليوم التالى جهز الحجاج جيشه واقتتل مع جيش ابن الأشعث واشتعل القتال بينهم خلال شهر المحرم أكثر من مرة وفى

أخر الشــهر وقعت بينهم معركة الزاوية فاشتد قتالهم وكاد جيش الحجــاج أن يهزم من جديد فلما رأى الحجاج الأهوال من حوله وما نــال من الناس تذكر مصعب بن الزبير وصبره على القتال إلى أن قتل أمام جيش عبد الملك بن مروان فجثا على ركبتيه وقال :

(لله در مصعــب .. ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وعزم على أنه لا يفر)

الحجاج على ما فيه من خصال إلا أنه كان منصفاً حتى مع خصومه ..

* * *

فــى نهاية اليوم اســتطاع جيش الحجاج أن يخــترق جيش ابن الأشعث وأحدث به إضطراباً فاضطروا للإنسحاب والعودة إلى الكوفة وبقــى كثير من مقاتلى البصرة لا يريــدون الرحيل إلى الكوفة وترك البصــرة للحجاج فبايعوا منهم رجلاً يدعــى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعــة على قتال الحجاج فظلوا يقاتلونه خمســة أيام ثم قرروا الإلتجاء إلى الكوفة واللحاق بعبد الرحمن بن الأشعث فلما انسحبوا عمــد الحجاج إلى خداع باقى أهــل البصرة فأمر مناديه أن ينادى فى الناس :

(لا أمان لفلان .. ولا أمان لفلان)

و ذكر أسماء بعض القادة فظن العامة أن الناس قد أمنوا وكانوا لا يرغبون فى ترك ديارهم والذهاب للكوفة فاستسلموا للحجاج رغبة منهم فى البقاء وكانوا أحد عشر ألف شخص فإذا بالحجاج يأمر بهم فضربت أعناقهم جميعاً ..

* * *

انظر للاستزادة :

(*) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ٣٥ : ٣٧
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٢٢ : ٣٢٤
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٢٦ : ٣٢٩
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٣٤ : ٣٤١
(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – (٤٤٩/٤ : ٤٥٤/٤)– ص (٦٢٥ : ٦٢٦)
(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – (٤٦٠/٤ : ٤٦٤/٤)– ص (٦٢٨ : ٦٢٩)

دير الجماجم وما تلاها

القتال بين الحجاج وابن الأشعث استمر قرابة السنتين وكلما مر يوم كلما زادت مساحة التعاطف مع ابن الأشعث ومال الناس إليه أكثر وحتى اغلب المعارك التى دارت بين الجيشين كانت لصالح ابن الأشعث وعندها كان لابد أن يتدخل عبد الملك بن مروان بعد أن بدأت الشكوك تساوره أن الحجاج لن يستطيع أن يحسم أمر تلك الفتنة .. فاجتمع بأهل الشام يشاورهم فقالوا له :

(إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم)

و بعد مشاورات استقر الأمر على أن يبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان إلى أهل العراق بكتاب قال فيه :

(إن كان يرضيكم منى عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم .. وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام .. وليختر ابن الأشعث أى بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت .. وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان)

كان هذا عرضاً لا يقاوم إذا كانت الظروف طبيعية ولكن لعلمه بأن الظروف غير طبيعية فقد أوصى ابنه وأخاه بأنه فى حالة رفض أهل

العــراق لهذا العرض فالحجاج يكون أمير الحرب كما هو وأن يكونا فى طاعته ولا يخرجون على رأيه ..

خلال أيام ستكون الرسالة فى يد الحجاج ..

* * *

فى تلك الأثناء كان الحجاج قد تحرك من البصرة إلى منطقة تسمى دير قرة وخرج له ابن الأشــعث فعســكر فى منطقــة دير الجماجم فاضطــر الحجاج أن يتوجه إليه ويشــتبك معه فكانــت الغلبة لابن الأشــعث بشكل كبير حتى وصل رســولا عبد الملك إلى أرض المعركة والتقوا بالحجاج فلما علم بما فى الكتاب ســاءه الأمر وحزن حزناً لم يحزنــه من قبل .. هذا الكتاب يعنى أن ثقــة عبد الملك فيه اهتزت وأن صورة الحجاج كحاكم قوى لا يُهزم ولا ينثنى قد شــابها الكثير مــن الإنتقاص فطلب منهم ألا يعرضوا الأمر على ابن الأشــعث حتى يبعــث إلى عبد الملك بن مروان لعله يقنعه بتغيير رأيه فأرســل إليه كتاباً قال فيه :

(يا أمــير المؤمنين .. والله لئن أعطيت أهــل العراق نزعى عنهم لا يلبثــون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويســيروا إليــك ولا يزيدهم ذلك إلا جــرأة عليــك .. ألم تر وتســمع بوثوب أهل العراق مع الأشــتر النخعــى على بن عفان ؟ فلما ســألهم ما تريدون قالوا : نزع ســعيد بن العاص .. فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ..

وإن الحديد بالحديد يُفلح .. كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك)

فرفـض عبد الملـك كتاب الحجاج وأصر علـى عرضه الأول لأهل العراق فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله :

(يا معشـر أهل العراق .. أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .. وإنه يعرض عليكم كذا وكذا)

و قال محمد بن مروان :

(وأنا رسول أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك)

فقالوا :

(ننظر فى أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية)

فاجتمع بن الأشعث بأصحابه وقام فيهم خطيباً فقال :

(قد أعطيتم أمـراً انتهازكم اليوم إياه فرصة .. وإنكم اليوم على النصـف فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم الزاويـة فأنتم تعتدون عليهم بيوم تَسْـتر[1] .. فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون .. فوالله لازلتم عليهم جرآء وعندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم)

(١) مدينة تسمى تستر

فاعترض أصحاب بن الأشعث على ذلك وصاحوا غاضبين :

(إن الله قـد أهلكهم فأصبحوا فى الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسـعر الرخيص والمادة القريبة .. لا والله لا نقبل)

وكان جيـش ابن الأشـعث يعسـكر فى ديـر الجماجـم فيأتيه المدد والطعام من خلفه من الكوفة وسـوادها فلم يشـعروا بنقص فى المؤونـة أما جيـش الحجاج فكان خلفه صحراء وأقـرب مدد له كان الشـام فكانت المؤونة ضعيفة فأصابهم نقص الطعام حتى غلت عليهم الأسعار فكانوا لا يذوقون اللحم إلا قليلاً وكأنهم فى حصار .. وبهذا كان موقف جيش ابن الأشـعث أقوى فرأى أصحابه عدم قبول عرض عبد الملك ..

فلما أبلغوا رسـل عبد الملك برفضهم فرح الحجاج أيما فرح وعزم على اسـتغلال تلك الفرصة التى أتيحـت له للقضاء عليهم .. عندها جاءه عبد الله ومحمد وقالوا له :

(شأنك بعسكرك وجندك .. واعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع)

* * *

أراد الحجاج أن يستفيد من تلك الفرصة الذهبية وفكر فى كيفية تحقيق أكبر ضرر ممكن فى جيش ابن الأشعث فلم يجد أفضل من هزيمة كتيبتهم التى تضم علماءهم وفقهائهم وكانوا يسمونها كتيبة القراء فخصص لها ثلاث كتائب يتولون أمرها لا يهجموا على أحد سواها وكان على كتيبة القراء رجلاً يسمى جَبَلة ابن زَحْر وكان رجلاً عالماً وكانت كتيبته توقره بشده فوقف ينادى فيهم :

(يا عبد الرحمن بن أبى ليلى .. يا معشر القراء .. إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم .. إنى سمعت علىّ بن أبى طالب رفع الله درجته فى الصالحين وآتاه ثواب الصادقين والشهداء يقول يوم لقينا أهل الشام : أيها المؤمنون .. إنه من رأى عدواناً يُعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور فى قلبه اليقين .. فقاتلوا هؤلاء المُحلين المُحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه)

و قام وجوه الناس وعلماؤها يخطبون فيهم فخطب فيهم سعيد بن جبير وأبو البخترى الطائى والشُعبى وغيرهم فما أن بدأت المعركة حتى ضغطت عليهم كتائب الحجاج إلا أنهم صبروا لها وردوها حتى أخذتهم الحماسة فاندفعوا مبتعدين عن قائد كتيبتهم جَبَلة

ابــن زَحْر حتى صار وحيداً فلمحه عــدد من جنود الحجاج فهجموا عليه مســتغلين انشغال جنوده فلم يهرب منهم وواجههم حتى قُتل فاحتز رأســه الوليد بن نحيت الكلبى وأتى بها الحجاج فبشــر بها أصحابه فجعلوا يظهرون لكتيبة القراء ويقولون :

(يا أعداء الله .. قد هلكتم وقد قتل طاغيتكم)

* * *

معركة دير الجماجم لم تكن معركة عادية .. كانت معركة فاصلة فــى عمــر خلافة بنى أميــة .. لم يكن الأمر يقتصر علــى العراق أو الحجاج وإنما كان سيمتد حتى يُطاح بعبد الملك بن مروان من كرسى خلافته فى دمشق .. إمتدت المعركة مئة وثلاثة أيام ومعاركها كانت كل يوم تقريباً حتى قال بعض الرواة أنها أربعة وثمانون موقعة كان أغلبهــا على الحجاج وغَالَى بعضهــم فقال إنها كانت أربعة وثمانون موقعة ثلاث وثمانون لابن الأشعث والأخيرة عليه ..

* * *

من شــدة اختلاط الأمــر على الناس وقتها بســبب تلك الفتنة لم تكون الجيوش مقسمة على أساس قبلى فقد كان كل فريق منهم يظن أنه على الحــق ويقاتل لإعلائه حتى كان الجندى منهم يقابل مثيله من الجيش الأخر فيكتشف أنه يقاتل ابن عمه أو ابن خاله .. يروى

أنه فى أحد أيام المبارزات خرج من جيش ابن الأشـعث رجلاً يدعى عبد الله بن رِزام الحارثى فنال ممن خرج من جيش الحجاج واستمر علـى هذا الوضع ثلاثة أيام وفـى اليوم الرابع أخرج له الحجاج أحد أصدقائه ويدعى الجَـرّاح بن عبد الله الحكمى فلما لقيه بن رزام قال له :

(ويحك يا جراح .. ما أخرجك إلى ؟)

قال :

(قد ابتليت بك)

قال :

(فهل لك فى خير ؟)

قال :

(ما هو ؟)

قال :

(أنهزم لك .. فترجع إلى الحجاج وقد أحسـنت عنده وحمدك .. وأما أنا فإنى أحتمل مقالة الناس فى انهزامى عنك حباً لسلامتك .. فإنى لا أحب أن أقتل من قومى مثلك)

قال :

(فافعل)

فبــدأوا فى الإقتتال وكان بن رزام معــه غلام يحمل له قربة ماء وكلما عطش أعطاه منها وفى أحد المرات التى كان يشرب فيها حمل عليه الجراح يريد قتله فصاح به غلامه :

(إن الرجل جاد فى قتلك)

فتفاداه عبد الله بن رزام وضربه بعمود من حديد كان معه فسـقط أرضاً يدمى فقال لغلامه :

(انضح على وجهه من ماء الإداوة[1] واسقه)

ثم قال :

(يا جراح .. بئس ما جزيتنى .. أردت بك العافية وأردت قتلى)

فقال :

(لم أرد ذلك)

فقال :

(انطلق .. فقد تركتك للقرابة والعشيرة)

(١) قربة الماء

بالرغم مما سبق وبالرغم من أن غالبية الروايات أجمعت على أن جيش ابن الأشعث كان أكبر وأعلى تجهيزاً وأكثر إنتصارات في المعارك إلا أنه وفى اليوم الأخير وعلى عكس سير الأحداث تماماً استطاعت ميمنة الحجاج والتى كان عليها سفيان بن الأبرد أن تجتاح ميسرة ابن الأشعث وكان عليها الأبرد بن قرة التميمى دون عناء كبير حتى أن البعض شككوا فى الأبرد بن قرة وأنه قد تمت صفقة بينه وبين الحجاج على أن ينهزم بالناس .. بعد الإجتياح لم تجد ميمنة بن الأشعث مكاناً تذهب إليه فانضمت إلى القلب فتداخلت الصفوف وانبعجت وصار ترتيب الجيش أمراً صعباً فاستغل قلب جيش الحجاج ما حدث وضغط بكل قوته على قلب جيش العراق فوقف ابن الأشعث ينادى فى الناس حتى يجتمعوا إليه وصبروا كثيراً على هجوم الحجاج حتى اقتربوا منه فأتاه عبد الله بن يزيد الأزدى فقال له :

(انزل .. فإنى أخاف عليك أن تؤسر .. ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعا يهلكهم الله به)

فنزل من منبره وهرب وأصحابه .. بعدها حاصر الحجاج جيش العراق وبدأ يبايع الناس من جديد وكان لا يقبل بيعة أحدهم إلا بعد أن يعترف على نفسه بالكفر فإن قال أنه كفر صالحه أما إذا رفض فكان الحجاج يأمر بضرب عنقه ..

الحجاج كان خطيباً مفوهاً وإنتصاره فى معركة دير الجماجم مناسبة لم تكن لتفوته .. إنتصاراً عصيباً مثل ذلك لم يكن ليمر دون تقريع لأصحاب ابن الأشعث .. بعد المعركة خطب الحجاج فى الأسرى خطبة فصيحة يوبخهم بها .. وقف الحجاج أمام الناس فخطب فيهم قائلاً :

(يا أهل العراق .. إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف .. ثم أفضى إلى الأصماخ[1] والمخاخ والأشباح والأرواح .. ثم ارتع فعشش ثم باض وفرخ ثم دب ودرج فحشاكم نفاقاً وشقاقاً وأشعركم خلافاً .. اتخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤتمناً تشاورونه وتستأمرونه .. فكيف تنفعكم تجربة أو ينفعكم بيان ؟

ألستم أصحابى بالأهواز[2] حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر واتفقتم على الكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته .. وأنا والله أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً ..

و يوم الزاوية وما يوم الزاوية .. مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص قلوبكم إذ وليتم كالإبل الشاردة

(١) الصماخ هى قناة الأذن الخارجية التى تؤدى إلى طبلتها

(٢) يشير إلى موقعة تستر

عن أوطانها النوازع لا يسأل المرء منكم عن أخيه ولا يلوى الشيخ على بنيه حين عضكم السلاح ونخعتكم الرماح[1] ..

و يــوم دير الجماجم وما يــوم دير الجماجم .. بها كانت المعارك والملاحم ..

" بضرب يزيل الهام عن مقيله .. ويذهل الخليل عن خليله "

يــا أهل العراق .. يا أهل الكفــران بعد الفجران .. والغدران بعد الخــذلان .. والنــزوة بعد النزوات .. إن بعثناكــم إلى ثغوركم غللتم وخنتــم .. وإن أمنتــم أرجفتــم .. وإن خفتــم نافقتــم .. لا تذكرون نعمة ولا تشــكرون معروفاً .. ما اســتخفكم ناكث ولا استغواكم غاوٍ ولا اســتنقذكم عاصٍ ولا استنصركم ظالم ولا اســتعضدكم[2] خالع إلاّ لبيتــم دعوتــه وأجبتم صيحته ونفــرتم إليه خفافاً وثقالاً وفرســاناً ورجالاً ..

يا أهل العراق .. هل شــغب شاغب أو نعب ناعب[3] أو زفر زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

(١) النخع هو المبالغة فى الذبح حتى يقطع النخاع
(٢) طلب منكم مساعدته
(٣) صاح صائح

يا أهل العراق .. ألم تنفعكم المواعظ ؟ .. ألم تزجركم الوقائع ؟ .. ألم يشدد الله عليكم وطأته ويذقكم حر سيفه وأليم بأسه ومثلاته ؟)

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

(يا أهل الشـــام .. إنما أنا لكم كالظليم[1] الرامح عن فراخه ينفى عنه القذر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذباب ..

يـــا أهل الشـــام .. أنتـــم الجنة والـــبرد وأنتم المـــلاءة والجلد .. أنتم الأولياء والأنصار والشـــعار والدثار .. بكـــم يُذب[2] عن البيضة والحوذة[3] وبكم تُرمَى كتائب الأعداء ويُهزَم من عاند وتولى)[4]

* * *

(١) ذكر النعام

(٢) يُدافع

(٣) البيضة هو ما يلبس على الرأس لوقايته أثناء القتال والمراد أنهم هم المدافعون عن الخلافة

(٤) البداية والنهاية – الجزء التاسع – ص ١٢٢ : ١٢٣

هلاك عبد الرحمن بن الأشعث

معركة دير الجماجم لم تكن الأخيرة فى مواجهات ابن الأشعث مع الحجاج ولكنها كانت الأكبر والاطول .. بعد هزيمته فيها عاد بن الأشعث مرة أخرى إلى البصرة وآوى إليه كثيراً من المنهزمين فتجهزوا واجتمعوا فى مكان يسمى مسكن فسار إليهم الحجاج وهناك اقتتلوا لقرابة الشهر كانت الكفة فيها متساوية حتى استطاع رماة الحجاج أن ينالوا من جيش ابن الأشعث ويسقطوا العديد من فرسانهم فتقدم إليهم الحجاج وقضى على كثير منهم فلم يجد ابن الأشعث بداً من الهرب مجدداً ولكن تلك المرة إلى سجستان بعد أن قتل جُل قادته وفرسانه من الصف الأول مثل بسطام بن مصقلة الشيبانى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وأبو البخترى الطائى وعبد الله بن شداد وعمرو بن ضبيعة وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم ..

* * *

لم يجد ابن الأشعث مفراً بعد هزيمته فى مسكن إلا التراجع ناحية سجستان وقد نظم صفوفه مجدداً محاولاً العودة إلى العراق مرة أخرى إلا أن الحجاج لم يمهله وأرسل إليه جيشاً بقيادة عمارة بن تميم اللخمى فتقاتلوا وانهزم ابن الأشعث مجدداً فتراجع إلى سابور وجمع عدداً من الاكراد استطاع بهم هزيمة جيش الحجاج ..

و هكذا ظل تراجعه إلى سجستان يتخلله بعض المعارك الصغيرة مع جيش الحجاج الذى يتعقبه وفى كل منطقة كان يمر عليها كان أمراءها ما بين داعم له وما بين رافض لوجوده بالرغم من أن تلك المناطق كانت فى عهده منذ شهور قليلة إلا أن هزيمته من الحجاج فى دير الجماجم جعلت بعض أمراء الأقاليم يعيدوا ترتيب حساباتهم خشية أن ينتصر الحجاج فلا يجدوا ما يعتذروا به إليه ..

* * *

فى النهاية وصل ابن الأشعث إلى أحد المناطق التابعة له وهى منطقة تسمى بست وكان عليها عياض بن همیان الشيبانى فاستقبله وأكرمه ثم استغل غفلة أصحابه عنه وقيده وقد فعل ذلك لكى يستأمن به عند الحجاج وبالفعل كادت الحرب أن تضع أوزارها عند هذا الحد لولا أن لحقه حليفه السابق رُتبيل ملك الترك الذى سمع أنه نزل عند عياض فذهب لزيارته واستقباله فعلم بأمر احتجازه فهدد عياض قائلاً :

(والله لئن آذيته بما يقذى عينه أو ضررته ببعض الضرر أو أخذت منه ولو حبلاً من شعر لا أبرح حتى أستنزلك وأقتلك وجميع من معك وأسبى ذراريكم وأغنم أموالكم)

فلــم يجد عياض مفــراً من تركه بعد أن اســتأمن رُتبيل وعاد إلى الحجاج ليخبره بما حدث .. فى المقابل إجتمع لابن الأشــعث حوالى ســتون ألفاً ممن رفضوا الرضوخ للحجاج واجتمعــوا فى بلاد رُتبيل ناحية سجســتان .. عدداً مثل هذا أغرى أصحاب ابن الأشــعث على مواصلــة القتــال ولكنــه ارادوا أن يجتمعوا بعشــائرهم فى المناطق القريبة قبل مواجهة الحجاج واختاروا أن يبدأوا من خراســان وكان عليهــا يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وكان مقاتــلاً فذاً مثله فى هذا مثل والده فحذرهم ابن الأشعث من ذلك وأخبرهم أن قتال أهل الشام اولى فقال:

(إن بها يزيد بن المهلب وهو رجل شــجاع ولا يترك لكم سلطانه .. ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشام فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام)

فقالوا :

(لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا أكثر ممن يقاتلنا)

* * *

بعد المشاورات نزل ابن الأشعث على رأيهم وساروا معاً حتى إذا ما اقتربوا من خراسان انسحب واحد من أصحابه ويدعى عبيد الله بن عبد الرحمن القرشى وأخذ معه ألفان فقال لهم بن الأشعث :

(إنـــى كنت فى مأمن وملجأ فجاءتنى كتبكـــم أن أقبل فإن أمرنا واحد فلعلنـــا نقاتل عدونا فأتيتكم .. فرأيتم أن أمضى إلى خراســـان وزعمتـــم أنكـــم تجتمعون إلى وأنكم لا تتفرقـــون .. وهذا عبيد الله قد صنـــع ما رأيتـــم فاصنعوا ما بدا لكم .. أما أنـــا فمنصرف إلى صاحبى الذى أتيت من عنده[1])

فتفـــرق عنه طائفة وأقنعه طائفة اخرى بالمكوث والإســـتمرار فى التحرك ناحية خراســـان فقبل منهم وقد بقى معه قرابة العشـــرون ألف مقاتل فلما اقتربوا من خراسان أرسل يزيد بن المهلب كتاباً لابن الأشعث قال فيه :

(قد كان لك فى البلاد متســـع ومن هو أهون منى شـــوكة فارتحل إلى بلد ليس لى فيه سلطان فإنى أكره قتالك .. وإن أردت مالاً أرسلت إليك)

فكان جواب ابن الأشعث :

(إنـــا ما نزلنا لمحاربة ولا لمُقام ولكنـــا أردنا أن نُريح ثم نرحل عنك وليست بنا إلى المال حاجة)

و لكن بعد فترة قصيرة أقبل عمال ابن الأشعث فجبوا الخراج من الناس وعلم بذلك يزيد فقال :

(١) يعنى رُتبيل

(من أراد أن يُريح ثم يرتحل لم يجب الخراج)

ثم أرسل إليهم مجدداً :

(إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وزيادة .. فاخرج عنى فإنى أكره قتالك)

فرفضوا الإرتحال وعندها لم يجد يزيد بُداً من قتالهم فتقاتلوا فلم يصبر مع ابن الأشعث إلا قليلاً حتى هزموا وهرب ابن الأشعث مرة أخرى وعاد إلى رُتبيل وأسر يزيد بن المهلب الكثير منهم ثم أرسلهم إلى الحجاج ليقضى فيهم ..

* * *

لما وصل عبد الرحمن إلى أرض رُتبيل قال له أحد أصحابه واسمه علقمة بن عمرو الأزدى :

(ما أريد أن أدخل معك لأنى أتخوف عليك وعلى من معك .. والله لكأنى بالحجاج وقد كتب إلى رُتبيل يرغبه ويرهبه .. فإذا هو قد بعث بك سلماً أو قتلكم .. ولكن معى خمسمائة قد تبايعنا على أن ندخل مدينة نتحصن بها حتى نُعطَى الأمان أو نموت كراماً)

كان هذا تحذير من علقمة لابن الأشعث نظراً لما رآه من إنحسار سطوته وانصراف أصحابه عنه إلا أنه رفض نصيحته ودخل إلى أرض رُتبيل محتمياً به .. أما علقمة فأخذ أصحابه الخمسمائة وقد بايعوا واحداً منهم اسمه مودود البصرى وامتنعوا فى أحد الحصون

فأتاهم جيش الحجاج بقيادة عمارة بن تميم اللخمى فحاصرهم حتى آمنهم عمارة فخرجوا إليه ..

أما عن ابن الأشعث فقد حدث بالضبط ما توقعه علقمة .. بدأت رسل الحجاج فى القدوم إلى رُتبيل .. واحداً بن الأخر .. آخر رسالة من الحجاج إليه حملت تهديداً صريحاً :

(أن ابعث به إلى وإلا والذى لا إله غيره لأوطئن أرضك ألف ألف مقاتل)

* * *

فى نفس الوقت وتزامناً مع رسل الحجاج كان عند رُتبيل رجلاً اسمه عبيد بن سبيع التميمى وكان أحد أتباع ابن الأشعث قد خاف مما يجرى ومن تتابع رسل الحجاج إلى رُتبيل فأراد أن يعقد صفقة يخرج منها رابحاً من كل الأطراف .. يربح مالاً من رُتبيل ويأمن أيضاً عند الحجاج .. ذهب إلى رُتبيل وقال له :

(أنا آخذ لك من الحجاج عهداً ليكفن عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه عبد الرحمن)

رأى رُتبيل أنها فرصة يأمن بها على ملكه ويخرج رابحاً بعدم دفعه للخراج سبعة أعوام فوافق على المقترح .. فلما وافق بعث عبيد إلى الحجاج كتاباً قال فيه أن رُتبيل لا يعصيه وأنه لن يدعه حتى يبعث إليه بعبد الرحمن بن الأشعث)

فوافق الحجاج على الكتاب وأرسل إليه مالاً وأخذ مثله من رُتبيل فربح من الطرفين فقام رُتبيل بقتل ابن الأشعث واحتز رأسه وبعث بها إلى الحجاج فطيف بالرأس فى العراق ثم أرسلت إلى عبد الملك فطيف بها فى الشام ثم أرسلت إلى عبد العزيز شقيق عبد الملك وكان والياً على مصر فطيف بالرأس أسواق مصر ولم يكتفى رتبيل برأس بن الأشعث وإنما أرسل معها ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته..

* * *

و قد اختلفت الروايات فى شأن مقتل ابن الأشعث حيث قيل أنه مات بالسُل فقطع رُتبيل رأسه قبل أن يدفن وأرسلها للحجاج .. وقيل أن رتُبيل أحضره وثلاثين من أهله فقيدهم وأرسلهم إلى عمارة بن تميم قائد جيش الحجاج فعلم بن الأشعث أن الحجاج سيقتله فاستغل فرصة غفل فيها حراسه عنه وألقى بنفسه من فوق أحد البنايات فمات ..

و على أى حال فبموت ابن الأشعث انتهى أكبر خطر على الدولة الأموية فى زمانها واستطاع الحجاج بمهارته العسكرية فى حسم المعارك المهمة التى أضعفت صفوف ابن الأشعث .. أيضاً نجح فى ذلك بسبب دهائه وبراعته فى اللعب على العوامل النفسية فاستطاع السيطرة على عوام الناس وعلى حكام الأقاليم واستغل الترهيب تارة والترغيب تارة للوصول لمبتغاه فى النهاية .

الحجاج وتعامله مع الأسرى

أما عن الأسرى ففيها رويت قصص كثيرة تدل على بشاعة وقسوة الحجاج فى التعامل معهم وسـرفه فـى إهدار دمائهم .. فيروى أنه فى أحد المرات بعد دير الجماجم وصله الأسـرى فدخل عليه حاجبه ليعلمه بوصولهم فسـأله الحجاج عن أسمائهم فقـال له فلان وفلان وعددهم له فقال له الحجاج :

(إذا دعوتك بسيدهم فأتنى بفيروز بن الحصين)

و ترك حاجبه يخرج ثم صاح :

(ائتنى بسيدهم)

فقال الحاجب لفيروز :

(قم)

فلما مثل أمامه قال له الحجاج :

(أبـا عثمـان .. ما أخرجك مـع هؤلاء ؟ .. فـوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم)

فقال :

(فتنة عمت الناس)

و لم يفعــل الحجــاج ذلك حباً فى فيروز بــن الحصين حيث أنه كان ينوى قتله على أى حال ولكن لأن فيروز كان من أشراف العراق وأغنيائهــا فأراد الحجاج أن يســتولى على ماله فقــرر أن يأتلفه فى البدايــة حتى يخبره عن مــكان أمواله ثم يقتله بعدهــا .. وبعد أن حاوره قليلاً قال له :

(اكتب لى أموالك)

قال :

(ثم ماذا ؟)

قال الحجاج :

(اكتبها أولاً)

قال :

(ثم أنا آمن على دمى)

قال :

(اكتبها ثم أنظر)

فقال فيروز :

(اكتب يا غلام .. ألف ألفى ألف)

حتى ذكر مالاً كثيراً .. فقال الحجاج :

(أين هى وعند من هى ؟)

فقال فيروز :

(لا والله لا جمعت بين مالى ودمى)

فغضب الحجاج وأمر به فعذب بأسوا أنواع العذاب .. كان يُشد عليه القصب الفارسى المشقوق ثم يُجر حتى يُجرح جسده ويقطع لحمه ثم يضعوا عليه الخل والملح .. استمر عذابه حتى شعر بالموت فقال للحجاج :

(إن الناس لا تشكن أنى قتلت ولى ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً فأظهرونى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال)

فأخرجوه على الناس فصاح فيهم :

(من عرفنى فقد عرفنى .. أنا فيروز بن الحصين .. إن لى عند أقوام مالاً فمن كان لى عنده شيء فهو له وهو منه فى حل فلا يؤدين أحد منه درهماً .. ليبلغ الشاهد الغائب)

فغضب الحجاج من خداع فيروز له فأمر به فقطعت رأسه ..

ثم أمر بأن يأتوه بمحمد بن سعد بن أبى وقاص فلما آتاه قال :

(يا ظل الشيطان .. أعظم الناس تيهاً وكِبَراً .. تأبى بيعة يزيد بن

معاوية وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم ضربت مؤذناً ؟)

و جعل يضربه على رأســه بعود كان فى يــده حتى أدماه ثم أمر به فقتل ..

* * *

ثم أمر بأن يأتوه بعمر بن موسى فقال :

(يا عبد المرأة .. أتقوم بالعمود على رأس ابن الحائك[1] وتشرب معه فى الحمام)

فقال :

(أصلح الله الأمير .. كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها .. فقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وبفضلك وإن عاقبت عاقبت ظلمة مذنبين)

فقال الحجاج :

(أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفى منها الأبرار .. وأما اعترافك فعسى أن ينفعك)

و ظن الناس أنه ناجى إلا أن الحجاج أمر به فقتل ..

(١) يعنى ابن الأشعث

ثم دعا بالهلقام بن نعيم فقال :

(أحببــت أن ابن الأشــعث طلب ما طلب .. مــا الذى أملت أنت معه ؟)

قال :

(أملت أن يملك فيولينى العراق كما ولاك عبد الملك إياه)

فأمر به فقتل .. ثم دعا عبد الله بن عامر فلما أتاه قال له :

(لا رأت عينك الجنة إن أفلت)

فقال :

(جزى الله ابن المهلب بما صنع)

قال :

(وما صنع ؟)

فأنشد له شعراً قال فيه :

لأنه كاس فى إطلاق أسرته .. وقاد نحوك فى أغلالها مضراً

وقى بقومك ورد الموت أسرته .. وكان قومك أدنى عنده خطراً

و كان يريــد أن يوقع البغضاء بين يزيد وبين الحجاج حيث ترك يزيد الأســرى من قوم الحجاج كونهم أقل خطراً عليه وعلى ملكه ..

فأطرق الحجاج رأســه ووقرت كلمات عبد الله بن عامر فى قلبه ولكن تغلبت عليه روح الإنتقام فقال :

(وما أنت وذاك ؟)

فأمر به فقتل وظل حاملاً كلمات بن عامر فى قلبه حتى انتقم من يزيد بن المهلب وعزله عن خراسان وحبسه ..

* * *

لم يكتفــى الحجاج بمن فات ذكرهم فقد كان يخصص أياماً كاملة لعقاب وقتل من شــاركوا فى فتنة ابن الأشعث فقتل الكثيرين ومنهم عمر بــن أبى قرة الكندى وكان من أشــراف العراق وقتــل أيضاً أبو المصبح عبد الرحمن بن الحارث المعروف بأعشــى همدان أحد أشهر شــعراء الكوفة وكان يجلس لضرب أعناق الناس من النهار إلى الليل .. وكما ذكرنا فكان لا يصالح الأســير إلا إذا شهد على نفسه بالكفر فــإذا كفر قبل منه وصالحه أما لو رفــض فيقتله .. قيل أنه أوتى له برجل معتزل للحرب فلا كان مع هؤلاء ولا مع هؤلاء فقال له :

(أنت متربص[1] .. أتشهد أنك كافر ؟)

قال :

(١) أى تنتظر إنتهاء الحرب فتكون من أنصار الفائزين

(بئس الرجل أنا .. أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر ؟!)

فقال الحجاج :

(إذاً أقتلك)

قال :

(وإن قتلتنى)

فأمر بقتله .. ثم دعا بكميل بن زياد فقال له :

(أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان ؟ .. قد كنت أحب من أن أجد عليك سبيلاً)

قال :

(على أينا أنت أشد غضباً .. عليه حين أقاد من نفسه أم على حين عفوت عنه ؟)

ثم قال :

(أيها الرجل من ثقيف .. لا تصرف على أنيابك ولا تكشر على كالذئب .. والله ما بقى من عمرى إلا ظِمء الحمار[1] .. اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب)

(١) أى لم يبق من عمره إلا اليسير لأَن الحمار قليل الصبر على العطش

فقال الحجاج :

(فإن الحجة عليك)

قال :

(ذلك إذا كان القضاء إليك)

فأمر به فقتل ..

تلك القسوة وذلك التوحش فى التعامل مع الأسرى لم يكن أمراً طبيعياً فقد كان الأمر إنتقامياً أكثر منه إنفاذاً وتحقيقاً للعدالة .. كان الحجاج ينتقم لذاته ولصورته التى اهتزت فى عيون عبد الملك بن مروان أولاً وفى عيون الناس ثانياً .. ذلك لم يكن ليخفى على أحد وتناقلته الناس فيما بينها حتى وصلت أخباره إلى عبد الملك فأرسل إليه يقول :

(أما بعد .. فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذير الأموال .. ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين لأحد من الناس .. وقد حكم عليك فى الدماء فى الخطأ بالدية وفى العمد بالقود وفى الأموال بردها إلى موضعها ثم العمل فيها برأيه .. وإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل .. فإن كنت أردت الناس لك فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم .. وسيأتيك من أمير المؤمنين لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشنك إلا

المعصية .. وظُن بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ وإذا أعطاك الله الظفر بقوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً)

فأجابه الحجاج :

(أما بعد .. فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء وتبذيرى للأموال .. ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية ما هم أهله وما قضيت فى أهل الطاعة ما استحقوه .. فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفاً وإعطائى أولئك المطيعين تبذيراً فليسوغنى أمير المؤمنين ما سلف وليحد لى حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله .. ووالله ما سُلبت نعمة إلا بكفرها ولا تمت إلا بشكرها ولا أصبت القوم خطأ فأديهم ولا ظلمتهم فأُقاد بهم ولا أعطيت إلا لك ولا قتلت إلا فيك وأما ما أتانى من أمريك فأبينهما عزة أعظمهما محنة)

فلما قرأ عبد الملك رسالته قال :

(خاف أبو محمد صولتى ولن أعود إلى ما يكره)[1]

و كان هذا إيذاناً بإطلاق يد الحجاج فى الناس مرة أخرى .. كانت العلاقة بين الحجاج وعبد الملك بن مروان علاقة منفعة متبادلة .. الحجاج يعتبر يد عبد الملك الباطشة التى تقمع خصومه وتحفظ للدولة أركانها .. وعبد الملك يمثل الضمانة لتطبيق الحجاج ما يراه

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٥

حقاً مكتسباً له .. فالقتل والسجن والعقاب من وجهة نظره حفظاً للنظام لا أكثر وأن كل من يُخل بهذا النظام مارق يجب قتله إن استطاع أن يتمكن منه .. ومن أبرز ما يدلل على تلك العلاقة وأن الحجاج كان أفضل أدوات بنى أمية لحفظ ملكهم ما قاله الوليد بن عبد الملك حين مات الحجاج حيث قال :

(أما والله لئن سئلت عنه – ولأسألن – لأقولن كان والله القوى الأمين)

ثم خطب فى الناس فقال :

(ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول إن الحجاج جلدة ما بين عينى .. ألا وإنه جلدة وجهى كله)

* * *

انظر للاستزادة :

(*) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ٥٣ : ٥٤
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٤٢ : ٣٥٠
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٥٧ : ٣٨٣
(*) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ٣٨٩ : ٣٩٣
(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – (٤٦٩/٤ : ٤٩١/٤)– ص (٦٣٠ : ٦٣٦)
(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير –٤٩٩/٤– ص ٦٣٨